كلام عن

الشباب والعروبة فى القاهرة

[كتبت فى الأصل لجريدة « الجامعة الاسلامية » بيـافا ، ولم يتيسر إرسالها فى الميعاد المحدود ، فرأينا إثباتها هنا بنصها وفصها]

تفضلت « الجامعة الاسلامية » فرغبت إلى أن أساهم معها فى عددها الذى شاءت أن تتوجه باسم « الشباب » ؛ ومن المحقق أن « الشباب » يستطيعون فى هذه المرحلة من مراحل العصر الحديث أن يغتبطوا كثيراً ، لأنهم لم يعودوا خافتى الصوت إلى ذلك الحد الذى لا يفتح آذان الشيوخ ، ولأنهم قد مهدوا للحياة — على ضروبها — أسباباً من التفوق من شأنها أن تحمل على المفاخرة والمباهاة .

وعندى أن الشباب - فى الوقت الحاضر - قلما يعنى بإشباع عاطفة الغرور فى نفسه بمقدار ما يعنى بتوجيه الجيل الحديث توجيها متزناً موفقاً ، ثم فيه ما فيه من مجانبة لهذه العثرات الثقيلة التى تحطمت على صخورها أحلام الأجيـال الغابرة ، وفيه ما فيه من تحقيق لألوان من النفع الحافل بكل ما هو خير شامل .

والذين يدرسـون اليوم أطماع « الشباب » دراسة علم وتحقيق ، يخيل إليهم أن الجانب الروحى هو الذى يسيطر على هذه الأطماع سيطرة كبرى ، وهذا من خير ما نسوقه - معشر الشباب المشتغلين بالبحوث العلمية الروحية الفلسفية - دليلا وأى دليـل على اندحار المادية ، رغم ما يبدو فى مظاهرها الحالية من طلاء ورواء ، ويلوح لعين الأعشى بريقه فيظنه نوراً حتى إذا جاءه لم يجده إلا برقا خلاباً ، ونسوقه دليلا آخر على أن التنبه الروحى قد أخذ يستقر بعد إذ تقلقل من مستقره قرونا عديدة ، فأخذ ينتعش ويتنسم نسيم الحياة من جديد ، بفضل العلوم الحديثة التى نعتقـد أنهـا من أكبر العوامل على تثبيت المعتقدات الروحية ، لا على هدمهـا كما يظن الـكثيرون . والواقع أن الشباب اليوم لا تنطوى نفوسهم على الأمانى المعسولة والآمال الـكاذبة الداعية إلى السيادة المادية وما فيها من ضروب الإرهاق والاستعمار ، وإنما تسيطر عليهم أحلام ناعمة بيضاء ، وأمان سامية ، يريدون بها أن يحققوا من دستور السلام والإخاء والمساواة أكبر جانب ، حتى لا تطغى عليه تلك العقائد التى أرغمت العالم على أن يعيش فى تناحر وتدابر بل فى جحيم الخصام وسعير الحروب .

هذه النزعات الجديدة بما فيها من جلال ، وما يتخللها من روعة ، وما يغمرها من خير ، هى الت

ى

أتاحت للشباب تلك المنزلة السامية فى النفوس ؛ وما أحسب إلا أنها هى التى هيأت للزميلة الكبيرة الممتازة « الجامعة الاسلامية » أن تصدر هذا العدد الممتاز لتصور فيه جهود الشباب من جانب ، ثم لترجى إليهم من نصائح الكتاب ما يستطيعون به أن يتجهوا إلى منتهى ما آربهم فى خطوات سديدة وسعى رشيد .

وأعود إلى حظى من المساهمة فى عدد «الجامعة الاسلامية» الممتاز ،فأقف بالقراء المنتشرين فى جوانب الشرق العربى كله موقفاً لا أدرى ، أهو موقف الحيرة ، أم هو موقف التردد ، أم هو موقف بين هذين ؟ فقد تلفت حولى لأمسك بقلمى عنان موضوع أستطيع به مجابهة الشباب فى شىء من التوفيق ، ولكنى كنت كثير الحيرة بين ألوان التفكير ، كثير التردد بين صور الشباب المتعددة وأمانيه الواسعة ، فأنا أعلم من نزعات الشباب ما يعلمه الذى يكابد أعنف مراحله وأزخرها بالجرأة والتمرد !! « على حد تعبير الشيوخ وتصويرهم له »، وما أزال — ولله الحمد الذى لا يحمد على المكروه سواه ، إن صح أن ثمة مكروه — فى دور الشباب الباكر .

وهنا لا أكتم الزميل الجليل صاحب « الجامعة » القول بأنى كدت أودع دعوته أضابير المحفوظات ، معتذراً من إجابة الدعوة الكريمة بهذه الشواغل المرتجلة المألوفة ، ولكنى توقفت عن هذا الخاطر فجأة .

إذ لم لا أحدث الشباب عن مظاهر العروبة فى القاهرة ؟ القاهرة التى احتملت فى الصيف الفائت ألوانا من الجدل الحاد العنيف حول هويتها اليوم : أهى مصرية فرعونية ، أم هى مصرية عربية ؟

إذن فلأتحدث عن القاهرة من هذا الضرب ، على ألا أحمل فى هذا الحديث آمالا تهب مع الريح ثم لا تلبث أن تذهب بها الأعاصير ، أو نتمثل أحلاما تعانق السماء ، فنمس أقصوصة الوحدة العربية من ذلك الجانب الذى هلهل الهاتفون بها ؛ فالشباب الذى تتركز اليوم فى أذهانه تلك الأقصوصة سيعمل الآن ، وبعد الآن ، على أن يجعلها حقيقة صريحة لا دثار عليها رغم أنف الموتورين . سأحدثك عن القاهرة حين لا تبدو فى مظهرها القومى وحده ، بل حين تأخذ زينتها من ألوان الشرق العربى كله ، فأقول لك إن العروبة على ضروب صورها تجد فى مدينة الأهرام والأزهر حياة حافلة بما تثير فى النفس من أعمق عواطف الغبطة والسرور .

واسمحوا لى أن أزعم بحق أن « القاهرة » تستطيع وحدها أن تقتعد أريكة الصدر ، يوم يفاخر الناس بما تزدحم به العواصم الإسلامية من جماعات وجامعات ، وإذا كان الأزهر يحمل بين طواياه أسباباً من المجد ، فأوفر هذه الأسباب عندى أنه أتاح للشعوب الاسلامية أن تجتمع فى صحنه ، وأن تتزود من ثقافته . ولقد بقيت هذه البقعة الطاهرة من مدينة «القاهرة» تؤدى رسالتها حتى اليوم أداءً لا تعثر فيه ولا التواء ، ثم تجمعت إلى هذه الرسالة أسباب أخرى

يتصل بعضها بالصحافة ، ويتصل بعضها بالسياسة ، ويتصل بعضها بالأدب بعيداً عن الجو الصحفي ، وكانت جماع هذه الأسباب وليدة الحرب الكبرى قبل أن تكون وليدة الصلات التي جمعت طائفة من الشعوب العربية تحت التاج العثماني حتى آخر الحرب الكبرى .

كانت هذه الصلات وليدة الحرب ، فالشبان المصريون الذين اتجهوا إلى الميدان الشرقي قد عادوا إلينا وملء قلوبهم ذكريات طويلة عن هذا العهد ، برغم ما كانت يكتنفه من ضروب الأحداث ، وما من شك في أن الشبان العرب قد مهدوا لأنفسهم ألواناً شتى من الأواصر ، وصوراً رائعة من العلاقات مع إخوانهم الذين نزحوا إليهم من مصر . ومهما يكن نظرنا إلى مكانة أولئك وهؤلاء ، فإنا لا نستطيع أن ننكر أثر هذه الأواصر والعلاقات وعملها الساحر في النفوس ، على ما فيها من سذاجة بالغة وبساطة لينة .

بعد هذه المرحلة أتيح لنا في مصر أن نعلم الشيء الكثير عن فلسطين وعن الشام كله وعن العراق وعن كل شعب عربي كابد الحرب عدواً أو صديقاً ، ثم استطاعت الأيام التي وحدت بين أولئك الشبان البسطاء أن توحد بين طوائف أخرى أعمق صلة بالحياة ، فإذا جهودنا السياسية منتظمة في سمط واحد ، وإذا جهودنا الأدبية بعدئذ تتلاقى في جدول واحد ، وكأن ماء النيل قد امتزج بمياه بردى وأمواه الفرات .

هذه الوحدة هي التي تعيش الآن في أسلوبها الشعبي ، وهي التي يريد المصلحون لها أن تعيش في أسلوب رائع وسمت أخاذ ، وإذا كنا قد لمسنا حظ « الوحدة » أو بعضاً منه في الشام وفي فلسطين والعراق ، فهلا يدعوك ذلك إلى التساؤل : أي حظ أصابته في القاهرة ؟

إن العروبة ترى في القاهرة أروع ما تنشده من حياة ، ففيها مصريون صدروا عن القرية المصرية ، ولم يعرف أجدادهم من الشرق العربي إلا مكة ، ولم يعد الشرق العربي عندهم حدود السماع ، ولكنهم مع ذلك يتحرقون إلى العروبة شوقاً ويتدلهون بها غراما .

ففي دار العروبة القائمة على سيف النيل ، حيث يبسط فيها صاحبها العلامة « أحمد زكي باشا » سماط العروبة الأصيل ، يستطيع الشرقي أن يجازف في غير أناة ، فيقبل عليها دون أن يقال له من أنت ؟ وإنه لملاق فيها آناء الليل وأطراف النهار إخواناً يتصل كل واحد منهم بأمة شقيقة ، فهذا مغربي من الشمال الأفريقي ، وهذا عربي من صميم الكتاب ، وذاك عربي من أخاذ بغداد ، وذا عربي صدر عن كابل أفغانستان ، وهكذا وهكذا يتلاقى بالأمم العربية كلها مجتمعة في أفراد منها عند هذا الصعيد .

فإذا أخذ الشرقي حظه من « دار العروبة » ، وشاء الصلة بأفراد من أعلام المصريين ليطلع على ما في طواياهم من نزعات حيال العروبة وأبنائها ، إذا به يدهش ويدهش حين يقرأ في طيات قلوبهم صفحات [illegible] بذكر العروبة ، زاخرة بذكرياتها العميقة الطيبة .

ثم كل شيء فى القاهرة يتناول العروبة وفق أسلوبه، فالأستاذ الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب يعيش اليوم وفى دخيلة نفسه روح عربية لا تعرف حدود الأصقاع، ولا مسالك الفلك. والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية لا يحفل بجلسة من الجلسات، أو يعنى بحديث من الأحاديث، بمقدار ما يحفل بجلسات العروبة وأحاديثها الرائعة التى يمنحها نصيبها الأوفى، والأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك عميد معهد التربية السابق قلما يتخير فى رسائله حديثاً لا يخاطب به العروبة فى مظهرها الشامل، وغير هؤلاء جماعات وأشخاص كثيرون - لا يسمح المجال بذكرهم خوف الإطالة والملال - منتشرون فى القاهرة، لهم طابعهم العربى، وأسلوبهم العربى، وميولهم العربية، وأطماعهم فى أن تكون الصلة بين الناطقين بالضاد صلة وثيقة محفوفة بالنجاح واضطراد الفوز.

وما يقال عن هذه الجوانب الثقافية يقال عن نظائرها من الجوانب الأخرى، فنحن فى مصر نعتقد أن مشاركة بنى عمومتنا من العرب لنا فيما نتوفر عليه من أعمال - أيا كان نوعها - إنما تحمل معها حياة من الإخاء السحرى، ووشيجة من وشائج القربى المتينة، التى لا تستطيع قوة فى الأرض - بالغة ما بلغت - أن تفصم عراها، أو تهد من بنيانها الشامخ الذرا، الرفيع العماد.

وقد يسرك كثيراً أن تعلم أن الحفلات التى تقام فى القاهرة لا نعدها ناجحة ما لم يكن من شهودها جماعة من أقطاب الشرق العربى، وما لم يكن من خطبائها جماعة أخرى من خطبائه المصاقع أو من شعرائه المبرزين النابهين؛ وقد يسرك كثيراً أن تعلم بأن الوافد من الشرق العربى على القاهرة لا قدرة له على الدعوى بأنه نزح عن بلده إلى بلد غريب، وأنى له هذه الدعوى العريضة، وإخوانه المصريون يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم؟ بل أنى له بهذه وهو محفوف أبداً بأصدقاء تنطوى نفوسهم على أعمق عواطف الود والإخاء، يوفرون عليه أسباب التزود من الحياة القاهرية التى لا ضريب لها فى الشرق كله؟ وقد يسرك أيضاً أن تعلم بأن الفكرة التى تبدأ أول مراحلها فى العراق أو فى أقصى الجزيرة إنما تلقى حظها من الذيوع والانتشار فى القاهرة قبل أن يتناولها الباحثون وكأنهم يجادلون رجلا لا يبعد عنهم إلا شبراً واحداً.

فهل يتاح لهذه المظاهر الجياشة بألوان الإخاء وضروب الود لها أن تحرك فى «الشباب» عواطف أخرى؟ من المرجح عندى أن الشباب سيتناولونها بالتأمل الكثير، والتفكير الهادىء، وسيبتكرون لها حياة جديدة من حقها أن تكون استغلالا طيباً لهذه الصلات العميقة حتى تخرج من أسلوبها المشتت إلى أسلوب آخر أشبه ما يكون بالقصيدة الموحدة القافية. وإلى أن يبتكر الشباب هذا الأسلوب لاستغلال مظاهر العروبة فى القاهرة أمد أيدى إليه مصافحاً ضارعاً إلى الله أن يهىء لنا من أمرنا رشداً؟

الأسمر صبرى